رواية

الفضيحة الإطالية



محمد بركة

محمد بركة

الفضيـــحة الإيطـــالية

رواية

الظلال

الظلالُ التي تلاشت من أمامي
ذَرتْ الريح بقاياها

حملتُ ما تبقى من نبتة الظلال تلك
وسرتُ باتجاه الشمس.

يحدث هذا لليوم الثالث على التوالي..

أمد خطوة ثقيلة وأنا أعبر إشارة المرور وسط أمـواج هائجة لبشر لفحت وجوههم شموس أفريقية وحفرت قسـوتها في ذن العين مدينة الصهد والزحام والأكسجين الأسود.

نظرة شاردة تفلت مني عبر الفضاء المخنوق بغيمـة تلوث.

يرتجف شيء ما بداخلي.

إنه انعكاس الضوء ساعة العصاري على واجهة بناية شيدها حفاة جائعون على الطراز الفرنسي قبـل 150 عامـا حين أراد الخديوي إسماعيل أن يجعل القاهرة نسـخة مـن باريس.

البناية صفراء.

الضوء سبيكة ذهبية تغمر رؤوس الحيوانات المثبتـة في زوايا الجدران.

فى هذه اللحظة بالذات أتوقف عـن السـير وأشـعر بجفاف خفيف في الحلق.

لقد تذكرت وجها إيطاليا أضاء قبل عـامين سـردابا سريا دخل روحي بنفس هذه الدرجة الاستثنائية من الكثافـة والحنو..

1

لماذا لم تحبني القاهرة؟

أتساءل يوميا وأنا أتأهب للعودة إلى البيت كما يعود القاتل إلى مكان الجريمة.

أغادر صالة التحرير بخطوات بطيئة مثل "روبوت" قديم وأفكار تتطاير مثل وطاويط فقدت رادارها الطبيعي.

أنشط فجأة حين أدلف إلى المقبرة الكهربية المسماة أسانسير.

أجدها خالية.

أعرف أنه يمكنني الآن أن أمارس بعض حركات الأكروبات مستندا على القوائم الحديدية داخل الحيز المعدني الضيق، وقبل أن يشير الضوء الأحمر إلى حرف G وينفتح الباب، أكون قد اعتدلت وارتديت القناع المناسب لاستقبال العالم الخارجي، أوقع في جدول الانصراف دون أن أعرف كيف احتملت الحياة في هذه المؤسسة 6 ساعات، أرد بوقار يليق بكرافتة ماركة "أرماني" على تحية موظفي الأمن وهم يودعونني أمام البوابة الإليكترونية.

أول من يصافح عيني بيه محترم انحنى على جدار مسرح الجلاء وتطفح ملامحه بالسعادة والخلاص وهو يفك زنقته في نفس الموضع الذى تحول بمرور الوقت إلى "مبولة" لعابري السبيل في منطقة "الإسعاف".

إنها ميزة أساسية ينفرد بها هذا المسرح وتتجاهلها إعلانات التليفزيون حين تشير إلى عروضة بعبارة: "على مسرح الجلاء، مكيف الهواء"

أسرع باتجاه محطة المترو هربا من فيض الروائح العطرة.

الموظف في شباك التذاكر يرمق باحترام كارنيه النقابة التي أنتمي إليها رسميا منذ 3 سنوات ولم أدخل مبناها الفخم الذى أنشأته القوات المسلحة سوى مرة واحدة مضطرا، يبدو الموظف كما لو كان يلوم نفسه على اللهجة غير الودودة التى طلب بها الاطلاع على الكارنيه قبل أن يقطع لي "نصف تذكرة".

صوت متثاءب يتصاعد في أرجاء المكان: حضرات السادة الركاب.. القطار المتجه إلى خط حلوان هو الأخير، وعلى السادة موظفي التذاكر مراعاة ذلك.

الركاب المتحفزون على الرصيف لا يبدو أنهـم فـي حاجة إلى مثل هذا التنبيه، يتأخر القطار ويمتلئ الرصـيف بالمزيد، لكنى اعتدت على فكرة البحث عن موطئ قدم وسط كتلة اللحم التى تطبق على أنفاس القطار المسكين في رحلته الأخيرة. أحاول عبثًا منع الأقدام من أن تدوس حذائي.

لا أحد يعتذر.

رائحة العرق المعتقة تزكم أنفي، لا أحد يبدو مشغولًا بـذلك غيري. العيون من حولي تعطي نفس التعبير الـذى تعطيـه عيون سمك ميت.

رغم كل شيء ثمة سنتيمترات شحيحة تشكل فجوات فاصـلة بين رجال يباهون الأمم بكروشـهم ونسـاء يخفـين تهـدل صدورهن. في هذه السنتميترات ينبثق فجأة بصوته الهـادر الذي لا يتناسب مع ضآلة جسده: إقرأ معجـزات الرسـول يا كابتن!... وهبة الكتاب جنيـة يـا باشـا.. 50 معجـزة يا مدام.. المعجزة الواحدة بقرشين يا بيه!

ويترك في يد كل راكب نسخة من كتيب مرسوم على غلافه الملون جذع شجرة يبكي. يختفي الولد البائع في الزحام ثـم يظهر مرة أخرى يلم الكتب بنفس السرعة والحمـاس الـذي

وزعها به. لا يبدو متأثرا برد فعل الركاب السلبي، فلا أحد اشترى أو على الأقل تصفح الكتيب من باب الفضول.

هل دار بخلد الفرنسيين وهم ينشئون مشروع مترو الأنفاق في مصر أن يلاقي هذا المصير الرائع بعد سنوات قليلة من إنجازه: اللافتات التي تضم أسماء لمحطات تمزقت والبطانة الجلدية في الأبواب تآكلت بفعل الأمواس والمطاوي، العقد النفسية التي يعانيها طلبة الثانوي والمعاهد الخاصة ظهرت – طبقًا للتقليد المصري القديم – على المقاعد من خلال فنون الشخبطة والتشويه، لا لشيء سوى أن هذا المترو "بتاع الحكومة" وبالتالي فلابد أن يعامل معاملة خاصة تليق بالمقام!

الفرنسيون على أية حال أناس طيبون، يحبون الفنون ويغرمون بالتاريخ، لكن مشكلتهم أنهم يصدقون سريعا كلام المسئولين، في بلاد العالم الثالث، قيل لهم: الفراعنة بنوا الأهرامات وأنتم ستبنون مترو الأنفاق. فأخذوا الموضوع على محمل الجد واقترحوا أن تضم المحطات الرئيسية نماذج لتماثيل متنوعة تمثل الحضارة المصرية القديمة، ولم يدر بخلدهم أن التماثيل سيغطيها التراب وستأكلها الأملاح

والرطوبة ولن يفرق الركاب بعد فترة وجيزة بين صناديقها الزجاجية وبين عساكر الأمن المركزي المنتشرين على أرصفة المحطة بزيهم الأسود.

باعة البرتقال في جلبابهم الصعيدي يحاصرونني ببضاعتهم الرخيصة فور خروجي من المحطة. أتوقف فقط عند محل مخبوزات لأشتري منه بيتزا – أعرف أنها رديئة – بالجبنة والطماطم .

أستدير في طريقي للبيت وأنا أتهادى بمحاذاة السور الشاهق لسجن "طرة" بلونه الطوبي. أتجنب النظر إلى الجندي الواقف بزيه الكاكي في برج المراقبة، لم أخبركم أنني أسكن في العمارة الوحيدة في العالم التي تقف في شرفتها فترى واحدا من أقدم أنهار الدنيا أمامك والمساجين يؤدون طابور الصباح خلفك، وإلى وزارة الداخلية يعود الفضل في هذه اللفتة السياحية، فقد وعدت بنقل السجن أثناء البدء في بناء عمارات الشرطة – أو "مساكن الضباط" على حد تعبير الأهالي – وحين اكتمل البناء وسكنت الشقق، بقى الحال كما هو عليه!

إحساسي بالانتماء إلى شيء ما لا يتجاوز عدة ثوان هي المدة اللازمة لإغلاق باب مدخل العمارة خلفي وأنا متجه إلى الأسانسير. أفعل هذا يوميا بهدوء وحرص فور عبوري أسفل قوس اللمبات الصغيرة المطلية بالأخضر، والتي تضيء وتنطفئ في سلك حلزوني يتوج الباب "الألوميتال". هناك أكثر من 40 عائلة موزعة على 16 طابقًا يغط أغلبها في نوم عميق الآن. صلة ما تربطني بهؤلاء الطيبين النائمين، فأغلق الباب جيدا في وجه الكلاب الضالة حرصا على سلامة بشر لا أرى أحدا منهم في الليل أو النهار رغم مرور عامين على سكني – بنظام الإيجار الجديد – في هذه الأبراج التي تطل مباشرة على النيل. وإذا حدث وكان باب أحد الشقق المقابلة مفتوحا أثناء خروجي من شقتي يرد فورا في وجهي. أما إذا حكمت الظروف وجمعنا القدر لحظة انتظار الأسانسير فيتركونني مهما كانوا مستعجلين لأركب بمفردي مفضلين الانتظار بأطفالهم وحقائبهم على الركوب معي.

فأنا في النهاية واحد أعزب.

أي أنني أمثل خطرا على الأمن الاجتمـاعي العـام، خصوصا حين يسكن هذا الأعزب وسط الأسـر المحترمـة حاملا فيروس الانحلال ومهددا عفة بنات الحسب والأصول.

وكم خدعتنا أفلام الستينيات..

ظلت تلح على صورة العازب الوسيم القادم من الريف للعاصمة ليضبط إيقاعها الأنثوي بغمزة واحـدة مـن عينـه اليسرى حتى صدقنا، وحين وصلنا لم نجد صاحبة شقة مـن نوعية "زينات صدقي" تفرش لنا الأرض وردا ورملا، وإنما وجدنا ملاكًا يسرقون الكحل من العين..

2

لا أشك مثقال ذرة أن عيـونهم خاليـة الآن مـن أي تعبير، وأن هيئتهم وهم متحلقون حول التلفزيون تشبه إلى حد ما حيتان صغيرة طيبة لفظت أنفاسها على الشاطئ.

تلك حال الناس في بلادي حين يهل الشهر الفضيل.

تنقضي "ساعة ربك" وألسنتهم تلهج بذكر علام الغيوب هم الصائمون عن الطعام والشراب وممارسة الحب. وفـي الدقائق القليلة التي تسبق آذان المغـرب يحترمـون الحـق المقدس لسائق الميكروباص في السب بالدين بسبب انسـداد شرايين الطريق.

أما "ساعة قلبك" فيقضونها في نسف ما لذ وطاب ثـم السفر عبر أثير برامج المتعة والفرفشة بعد الإفطار.

ذهبت إلى ذلك المركز الثقافي الأجنبي لمشاهدة فـيلم أوربي هربا من الحصار الأمريكي لجميـع دور العـرض السينمائي، فلم أجد غير لسعة خفيفة في تلك الليلة الرمضانية الباردة.

عند المدخل المعتم قليلا مكتب لا يجلس عليه أحد.

ترددت في الدخول.

- أي خدمة؟

السؤال له نفس نبرة الاستعلام والإحساس بالتفرد التي تميز العاملين المصريين في المركز والسفارات الأجنبية بحي الزمالك حين يتعاملون مع مصريين مثلهم. الجديد هذه المرة أن الموظف كان مشمرا عن ساقيه وذراعيه وقطرات – من أثر الوضوء لابد – تتساقط من شعره المبتل . تعلقت عيناي لا إراديا بشبشب بلاستيك ماركة "زنوبة" يرتديه سعادة الباشا ويطرقع به على البلاط اللامع المصقول.

- أي خدمة يا أستاذ؟

لم تعد النبرة متعالية فقط، بل غير ودودة أيضا.

أردت أن أنصحه – مخلصا – بأن يسوي شعر حاجبه الكثيف المنكوش فهو في النهاية "واجهة" مركز ثقافي لدولة أقل ما توصف به أنها كعبة الموضة وقبلة الحساسية والجمال.

لم أجرؤ.

أحسست أنني متطفل على جنة هدوئه، كأن الرجل في منزله وجئت أنا فجأة أقتحم خلوته، تكلمت أخيرا وشعور حقيقي بالذنب بدأ يتلبسني.

رد بحسم:

- فوت علينا بعد ساعة.

- لكن الميعاد الساعة 6

- الميعاد 7 .

- مكتوب في الجدول أنه 6 .

- هذه المواعيد خاصة بأيام الإفطار، نحن الآن في رمضان، نتأخر ساعة عن الأيام العادية.

أضاف بفخر:

- أنا المسئول عن إعداد الجدول.

بالطبع لم أسأله: ولماذا لم ينوه حضرته بذلك فـي الجـدول الشهري الخاص بأنشطة المركز.

في هذه اللحظة فقط انتبهت إلى وجودها: الجميلة ذات الشعر الأحمر، وعلى الفور انبثق نفس الإحساس القـديم المـراوغ الذي يراودني كلما ألقت الصدفة ببنت أوربيـة - حساسـة ومختلفة فيما يبدو – في طريقي.

لا.. ليست اللهفة الشرقية الذكورية المعتادة ولا وهم الرغبـة – من خلال النوم مع أوربيات – في استعادة فتوحات العرب القديمة لأوربا حين هددت جيوش البدو فرنسا ودقت جحافلهم أسوار النمسا.

ولا حتى مجرد الرغبة الفضولية المشروعة في الاكتشـاف والتواصل.

فقط أسى غامض يترقرق شفافًا داخل نقطة بعيدة بأعماقي..

في تلك الليلة، كان الشعور بالأسى مضـاعفًا، ولا أعـرف لماذا، كان شعرها الأحمر القصير ناعما نعومة تستفز تلقائيا حاسة اللمس لديك فتفرك أطراف أناملك بشـكل غريـزي، كانت تجلس ساقًا على ساق، ومع ذلك فإن لكبرياء قوامهـا الممشوق حضور طاغ لا يبدو منسجما تمامـا مـع نعومـة ملامح الوجه التي خطها الرحمن بمزاج رائق على صـفحة بشرة تقع في المنطقة الفريدة بين شقرة فتاة إسكندنافية وحمرة خد امرأة أوكرانية.

كان الأسى قبضة من حنان.

إحساس باهظ بأن حزنًا مطمورا داخل هاتيك المآقي الأجنبية يخصني.

أعرفه تماما.

وأنا ابن الجنوب.

وما بيننا ليس عواصف وأعاصير مظلمة تفصل بين ضـفتي المتوسط، بل 1400 عاما من سوء الفهم المتبادل، تحديدا منذ

أن شق رجل في الأربعين يرعى الغنم جبهة الصحراء بسيف من نور، فتنفس عبيد الجزيرة العربية هواء الحرية.

صاروا سادة يرفلون في ثياب بيض.

وجرت في النهر سنوات كثيرة.

أصبحوا محاربين أشداء تسد قواتهم عين الشمس، وتتلاقـى أرواحهم على فكرة واحدة ألفت بين قلوبهم. قـدموا للعـالم عرضا: إما الإسلام أو الجزية أو الحرب.

ملك البلاد التي ستنتمي إليها حبيبتي في الألفية الثالثة

كان رده حاسما على هذا العرض: الحرب!

- 3 -

كنت قد قلت للموظف إنه لابد أن هناك شيء ما يمكن أن أشاهده وأتسلى به حتى يحين موعد الفيلم، لمح في كلامي إصرارا مفاجئًا: استسلم قائلا أن قاعة السينما – علـى أيـة حال – مفتوحة وأنني يمكنني الانتظار فيها.

لم أنتظر.

ظللت أتسكع في الردهات ، أتوقف أمام "بوسـترات" الحفلات الموسيقية بدار الأوبرا وأعيد قراءة البيانات الخاصة بالفيلم والمطبوعة في "بامفلات خاص. أطيـل التأمـل فـي أسلوب تصميم المبنى المعتمـد علـى الأقـواس والنوافـذ الصغيرة الضيقة وشغل الأرابيسك والسقف العالي والأعمدة البيضاء.

فكرت أن هذا التصميم مأخوذ من العمارة الإسـلامية وأن كثيرا من الهيئات الأجنبية تقدم على ذلك الآن بعد تنامي ما تعتبره "اتجاهات راديكالية معادية للغرب" في مصر حتى لا تبدو – على مستوى التصميم المعماري علـى الأقـل – غريبة عن المجتمع المصري.

لم يشعرني هذا بالارتياح.

عدت أفكر أن الأسـقف العاليـة – بالـذات – تقليـد تاريخي لم أحبه أبدا في بناء دور العبادة منذ الفراعنة.

وفجأة وجدتها أمامي.

عيونها الواسعة الجميلة مليئة بالحزن رغم ابتسـامتها المرتبكة وهي تقول بإنجليزية سيئة:

- عذرا، ولكنني عرفت من مسـتر أحمـد – البيـه الموظف – أنك تنتظر الفيلم، هذا يعني أنك لا زال لديك 30 دقيقة، ولهذا فكرت في أنك ربمـا ترغـب فـي مشـاهدة معرضي، يسعدني هذا كثيرا.

أحدثت خطواتنا على أرضية الباركيه فـي الـدور الثـاني، أصواتًا مزعجة.

آسفة، فالمكان كما ترى غير مجهز لاستقبال الجمهور.

وهزت رأسها في حسرة.

- الحق أنني لم أر جمهورا منذ الافتتاح أول أمس.

كان المكان معتما..

أشعلت أحد الأنوار، أدارت المفتاح في باب القاعة ثم أشعلت جميع الأنوار، وما إن وقفت أنا أمام الصور المعروضة فـي

المقاسات المعتادة للوحات التشكيلية حتى هتفت فـورا فـي سري:

"يا بنت الإيه"!

إذ يقوم فن التصوير الفوتوغرافي علـى فكـرة غايـة فـي البساطة هي السكون. اقتناص لحظة حية وتثبيتها في إطـار خارج حدود المكان والزمان. غير أن أول ما يخطف الدهشة من عيونك هو هذا الإيحـاء القـوي بالحركـة الاهتزازيـة المراوغة!

خف الجمل يعلو ويهبط في حركته الأبدية على الرمال..

دخان الشيشة يصنع حلقات وخطوطًا في الهواء..

النسوة في أزقة دمشق القديمة أكاد أسمع رنة خلخالهن..

والحركة في هذه الصور المأخوذة بالأبيض والأسود لا تـتم بمنطق الواقع الصاحي، بل بمنطق الأحلام. الانتقال الهـادئ المسترسل للمادة وكأن الوجود ليس سوى مشـهد سـينمائي طويل تم تنفيـذه بالتصـوير البطـيء، والأشـخاص فـي الصحارى والمقاهي الشعبية ليسوا أشخاصا بل أفكارا حنونة تغفو في الخلفية على هيئة ظلال بل ملامح, تمنيت من كـل قلبي أن يكون هذا هو العالم الذي أعيش فيه، عالم بلا ألوان،

يختفي فيه اللمعان المصقول لكتالوجـات موضـة الشـتاء، وتصاب داخل أسواره تجارة كروت البوستال بالكساد، ويمل ضمن حدوده موظفو الأمن من اسـتقبالي يوميـا بابتسـامة عريضة منافقة وأنا أخطو إلى مكتبي في المؤسسة الضـخمة ذات القلب الرخامي..

"أين رأيت هذه الكرافتة من قبل؟"

همستُ بالسؤال لنفسي وأنا أدخل قاعة المعرض مرة أخرى في يوم آخر، كان لونها غير مألوف أقرب ما يكون إلى روز فاتح يرتديها أحد الأجانب تحت جاكت كحلي وهـو يتأمـل اللوحات بمرافقة ماريا.

حاولت أن أفهم لماذا أشعر بالضيق قليلا.

هل لأني فوجئت بوجود أحد الزوار؟

هل كنت أريد أن أجدها بمفردها؟

هل لأنه كان يفوقني طولا بشكل ملحوظ؟

أكثر من افتراض غير مقنع طرأ على بالي حتـى اكتشـفت أنني عدت مرة أخرى لممارسة لعبة الخـداع الجبـان مـع الذات. نعم لم يكن لدي الشجاعة الكافية لأعترف أمام نفسي أنني تضايقت، فقط لأنهما فـي حركتهمـا البطيئـة أمـام اللوحات، كانا على وشك التلامس العابر غيـر المقصـود، بعبارة أخرى، كانا على وشك الالتصاق!

هي منهمكة في الشرح بالإنجليزية وهو قـد خلـع نظارتـه الطبية وأمسكها بشماله يهز رأسه علامة الفهم والمتابعة، وما

بين كتفيهما مجرد فراغ ضيق من الســنتمترات البخيلــة.. السنتمترات التي تراقبني، تهزأ بي وتخرج لسانها لي، تقول: أيها العبيط! بأي حق تحس بعدم الارتياح!

حتى من ظهرها بدت ماريا جميلة ذلك الجمال الطازج وكأن الله انتهى من خلقها توا، كان عنقها هشًا وطويلا والجاكــت القطني على يدها ينادي خدا رجاليا كي يغفو عليه.

- معذرة!

قلت وأنا أتنحنح على طريقة جدي معوض وهو يدق على باب بيت مبني من الطين ومعــرش بالخشــب والجريد تسكنه بمفردها واحدة ست ترملت حديثًا:

- أوه! هاى!

قالت وابتسامة سلسة، تلقائية تشرق في سماء وجها مثل شمس صغيرة..

- هاي!

رددت التحية، ثم سكتُ برهة متوقعا – في الحقيقــة متمنيا – أن تقوم بتقديمنا لبعضنا البعض.

لم يحدث ذلك.

- أوكي، سأنتظر بالخارج.

قلت محاولا أن أتقمص شخصية "الجنتلمان" المتفهم.

- أوكي

ردت ببساطة.

لم يمض وقت كثير وأنا انتظر على مقعد جلدي فخم بلون البرتقال، خرجتْ هي تودع الأجنبي الطويل وحمدتُ الله على أن العلاقة بينهما ليست حميمة إلى الحد الذي يستدعي وضع قبلة على الخد.

- إذن، سوف نكون على اتصال.. وداعا..

قال وهو يستدير هابطًا السلم الخشبي محدثًا ضجة هائلة.

- إنه شخص لطيف.

قالت وهي تنظر في اتجاهه، أخرجت علبة سجائرها من شنطة يدها، كانت من النوع المحلي "كليوباترا" ، لم أكن أدخن ، ولكن سبق لي إقامة علاقة مع مدخنات.

- ولكن عرضه لا يروق لي.

كانت لا تزال تتحدث عن ذلك الأمريكي.

خرج دخان النفس الأول في بطء وتلذذ.

أنوثتها الاستثنائية – على عكس الأخريات – لم تتأثر إطلاقا بمنظر فتحة الأنف وقد تحولت إلـى مدخنـة صغيرة شرهة.

- أي عرض؟
- إصدار كتاب مصور يضم مختارات من أعمالي.
- أهو ناشر؟ شكله – لم أقل كرافتته – في الواقع يبدو مألوفًا لي؟
- نعم لا بد أنك تعرفه، فهو مسئول في قسـم النشـر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

قالت بحماس وقد استدارت نحوى تماما ونظرت فـي عيني مباشرة، وعلى الفور تـداعت الصـور فـي ذهنـي، المظاريف الأنيقة البيضاء التي يحملها البريد إلى مكتبي من وقت إلى آخر، بداخلها بطاقات الدعوة الملونة لحضور حفل استقبال على شرف المؤلف فلان بمناسـبة صـدور كتابـه الفلاني عن قسم النشر بالجامعة التـي يـدعونها اختصـارا A.U.C وتذكرتُ جملـة refreshment will be served التي تأتي في ذيل الدعوة تجسيدا لطريقـة الأمريكـان فـي التعبير عن الكرم.

الصخب المحبب اللذيذ في "حديقة الأزهـار النـادرة" وضيوف الحفل يتبادلون الأحاديث الضاحكة وكئوس العصير في أياديهم.

السيدات في فساتين السـواريه السـوداء، مهرجـان الكرافتات، الإحساس الفاقع بالانتصار الذي يطل من عيـون الجميع: أمريكان ومصريين، فكل أمريكي يضع يده اليمنـى في جيبه ويحمل كأسه بشماله وحالة من الاسترخاء والثقـة تهيمن عليه على نحو يذكر بضباط البحرية الإنجليز قبل 60 عاما وهم يتناولون كأسا من البيرة في حانات خاصـة بهـم وسط القاهرة حين كانت جزءا من الإمبراطوريـة التـي لا تغيب عنها الشمس.

المصريون يجتهدون في تقليد اللكنة الأمريكيـة وهـم يترجمون آخر نكتة مصرية بأداء من يعرف أنه تحول إلـى شخص آخر بمجرد أن عبر بوابة "حديقة الأزهار النـادرة" وترك وراءه الزحام والفوضى والغبار للآلاف الهائمة علـى وجوهها في الشوارع.

وسط كل ذلك يتبدى الـروز الفـاتح فـي الكرافتـة، أمريكي طويل لا يكف عن الابتسام، نصف أصـلع، هـادئ

النبرة، وفي كل حفل استقبال، هناك امرأة جديدة يحدق فـي عيونها أثناء الدردشة معها.

- نعم، أعتقد أنني تذكرته.
- وماذا تعتقد؟
- بشأن ماذا؟
- العرض الذي قدمه، أنا في الواقع مترددة.
- أنا واثق أن غيرك من الفنانات يحلمن بهذه الفرصة، لاسيما أنهم في الـ A.U.C لديهم خبرة جيدة فـي الدعاية والتوزيع.
- كي أكون صادقة، يجب أن أخبرك أنني لدي حساسية خاصة ضد كل ما هو أمريكي، حتى قبل أن أشارك في كثير من أنشطة حركة مناهضي العولمة.

نظرتْ إلى السقف وأخذتْ تتطلع إلى النقوش وهـي تنفث الدخان على مهل.

- في الواقع، لستُ مثل ألكسندرا وجينـاروا وكـارلو وبقية المهووسين بقضايا السياسة والاقتصاد، هؤلاء الذين تنتفخ ذاكرتهم بالأرقام والبيانات، فأنا أعتمـد أكثر على الحدس والإلهام ، وعنـدما أخـرج مـع

الآلاف في شوارع روما، أكتفي برفع لافتة بيضـاء عليها كلمة واحدة هي "السلام"، أيا كـان موضـوع المظاهرة.

- من أين جاءت هذه الحساسية إذن ضد كل مـا هـو أمريكي؟
- لا أعرف بالضبط.. أنا أكره الطـب الحـديث، ولا أؤمن بالأدوية الكيماوية، ويعذبني بشكل خـاص أن يفقد إنسان العصر علاقته بالأرض فيما يأكـل، وأن يحرم من السير بقدم عارية على عشب مبتل بالندى قبل شروق الشمس، يعذبني أن تتحول الفرحة والألم إلى تجارة كبرى لها دراسات جدوى وخطط تسويق، كثيرون يقولون أن الخلاص لن يأتي إلا مـن آسـيا حيث الروحانيات والتأمل والريكـي والفانكتشـيوي وأفكار الـ NEW AGE ، لا أعتقد ذلك، الخلاص إرادة فردية لا علاقة لها بالجغرافيا. توقفـتْ فجـأة لتتنفس بعمق.
- لا أعرف لماذا أسترسل معك في الحديث حول هـذه الخزعبلات..

قالت وهي تبتسم في حنان

- عفوا، ولكن ما علاقة كل هذا بأمريكا؟
- سألتها..
- أخبرتك أنني لا أعرف بالضبط.

قالت بحدة كامنة في نبرتها. تابعتْ:

- ربما كان للأمر علاقة برحلتي إلى نيويورك، كـان ذلك قبل ست سنوات حين أقمت معرضي الأول في جاليري Doma يومها كتبت "نيويورك تايمز" تقول أن شخصية فنية جديدة دخلت المشهد التشكيلي بقـوة وانهالت عروض البيزنس، غير أني بعد أسبوع كنت في روما أدفن وجهي في سـريري وأبكـي بسـبب شعوري بالعار، لقد اكتشـفت أن نيويـورك مدينـة للآخرين فقط.

أصبحتْ متوترة قليلا، بدا هذا واضحا في انبثاق رعشة لا إرادية، متناهية الخفة، جعلت السـيجارة تهتـز بـين أصابعها ، عرفتُ في هذه اللحظة أنني لن أحبها أبدا.

فقط سأعبدها.

- أما أنا فينتابني أحيانًا إحساس غامض بالذنب تجـاه كل ما هو أمريكي.

قلت وكأنني أتحدث إلى نفسي.

- كيف ذلك؟

سألتْ باهتمام واضح، غير أن نبرتها ظلـت محتفظـة بهدوئها.

- تلك قصة أخرى. دعك منها الآن، وأخبريني ما هو برنامجك الليلة؟

- 5 -

كعربي ، أنتمي إلى تراث قديم، الجنون فيه هو الدليل الوحيد العاقل على الحب، هكذا أسقط المؤرخون اسم "قـيس بن الملوح" واكتفوا بالإشارة إليه باعتبـاره "مجنـون ليلـى" ونسى الناس هويته كأمير لشعراء الكلام الذي يسعد القلـب. تذكروه فقط كشاب يستحق الرثاء لأنه خرج عن تقاليد القبيلة وصرح باسم المحبوبة في قصائد فكان عقابه الحرمان مـن الزواج بالفتاة التي ذهب حبها بعقله.

هكذا ما كنت أقوله لنفسي بمناسبة البلكونة وابتهـالات الفجر وأنا في الطريق للقاء ماريا في المركز الثقافي، كنا قد اتفقنا في النهاية على إجراء مقابلة صحفية للمجلة الأسبوعية التي أعمل بها.

حرصت هذه المرة على تجاهل الموظـف واكتسـبت خطواتي إيقاع من يعرف طريقه.

ابتسمت ماريا وقالت على الفور أنها غيـر مرتبطـة ببرنامج محدد، قبلت دعوتي لأن تخرج معـي دون تـردد، وكأنها جاءت إلى القاهرة فقط من أجل تلبية هـذه الـدعوة، وقفت أمام المرآة – فيما أرجو – ترش عطرهـا الخـاص

وتختار أجمل أقراطها للخروج مع رجل غريب لم يحدد لهـا حتى اسم المكان الذي سيذهبان إليه. كل ما قاله كان:

- سأكون مرشدك الخاص هذه الليلة.

وكم بدت هذه العبارة مطمئنـة، وكافيـة لأن تكسـر نصائح أصدقائها بتوخي الحذر في التعامل مـع العـرب إذ قالوا لها إن كل عربي يعتبر أي أوربية عاهرة بطبيعتها إلى أن يثبت العكس. رغم كل ذلك، لم أندهش مـن اسـتجابتها السريعة على هذا النحو، فقد بدا لي أن هذا هو الطبيعي جدا وما يثير الاستغراب هو أن يحدث العكس، لم أكن أشعر فقط أنني أعرف صاحبة هذه العيون الحزينة منذ زمن بعيد، بـل عرفتها – ولا أدري كيف أشرح ذلك – في حياة أخرى.

كتبت أثناء مراهقتي قصـة أجـدها الآن نوعـا مـن المسخرة بعنوان "زفاف ماريا" تحكي عن حفل زفـاف فتـاة جميلة على متن قارب صيد أحيته فرقة من طيور النـورس. لم يكن هناك عريس في هذه القصة التي تقع أحـداثها فـي منطقة "اللسان" بمدينة رأس البر حيث تلتقي عذوبة مياه النيل بملوحة مياه المتوسط، قرأت القصة بقصر ثقافة المحافظـة، وكان السؤال الذي طرحه الجميع بصيغ متفاوتة هو:

ولماذا اسم ماريا؟ ما دلالة هذا الاسم الأوربي؟ لمـاذا ليس سعاد أو فاطمة أو زينب أو أي اسم آخر نابع من البيئة؟

كان السؤال منطقي جدا ولكنني لم أعرف له إجابة.

- كيف استلهمت الاسم.. كيف خطر على بالك؟

سألني شاعر عجوز اعتاد أن يقـول أننـي موهـوب وحساس. كان من الواضح أنه أشفق علي حين رآني حـائرا فأراد أن يهون الأمر علي بسؤال بسيط، ولكنه لم يكن أبـدا بسيطًا.

- أنا لم أختر هذا الاسم!

قلت بنبرة يائسة واثقًا أن أحدا لن يستوعب حقيقـة أن الاسم هو الذي اختارني، فأنا لم أسمع به مـن قبـل، ولـم يصادفني في الروايات المترجمة التي اعتدت على استعارتها من مكتبة البادية، لكني ذات مرة سمعت صرخة عاشقة:

انتبهي ماريا!

كان قائد "القوة دلتا" يحذر محبوبته من هجوم غادر قام به الوحش الالكتروني الشرير في حلقة كرتـون بـالتلفزيون يشاهدها أولاد أختي الذين لـم يتجـاوز أكبـرهم العاشـرة وتذكرت الأحلام الغريبة التي يزورني فيها الاسم، ومـا إن

استيقظ حتى تتبخر كل التفاصيل ولا يبقى منها سوى رجـع الصدى البعيد القادم من بئر عميقة لحروف: م – ا – ر – ي – ا.

وحين رأيت عيونها – الإيطالية التي تحمل نفس الاسم – استيقظ في شيء ما كان نائما.

أضاءت بصيرتي وتذكرت كل شيء دفعة واحدة..

لقد كنت خادما في مملكة الرب أعمل بكل ما أوتيـت من عزم. في النهار أتوكأ علـى عصـاي وأضـرب فـي الصحاري لأوزع لبن الهداية وعسل الإيمان، وفي المسـاء أبكي حزنًا على قطعان بشرية ضالة تأبي دخول الحظيرة.

وظهرت راعية الغنم.

لم تحاول غوايتي.

قالت فقط:

أنا ماريا يا أبتاه!

وعلى الفور، وكأنني عشت أنتظر هذه اللحظة، نسيت العصا والصحراء وصرت أحج فقط لبساتين تلوح بعيدا فـي عمق عينيها. اشتهيت بحرا من الآثام وأنا أمد يدي أتحسـس

صدرها، وحين أدمنتُ نبيذ شفتيها، اختفت فجأة، كما ظهرت فجأة. صرت طريد جنة الرب وجنة العيون الزرق.

حدث هذا في حياة أخرى عشتها قبل ذلك بالتأكيد. في حياتي الحالية اسمي عبد الله. مسلم شاب تنهاه عقيدته الدينية عن التفكير في تعدد الحيوات وتناسخ الأرواح، غيـر أنـه يستقل التاكسي الآن بصحبة صديقته الخواجاية محـاولا أن يتذكر الملابسات والتفاصيل في علاقة القسيس مـع راعيـة الغنم الحسناء، فيشعر بطنين خفيف في الأذن.

كانت ماريا قد أعطتني رقم تليفون صديقتها الإيطاليـة المقيمة في القاهرة بشكل مستقر. اتفقنا على أننـي سـأكلمها حين أكون مستعدا وتصف لي العنوان فأذهب لاصـطحابها من هناك. ألمحت إلى أن السهرة ستطول فالقـاهرة مدينـة لا تنام، خصوصا في رمضان. طلبت الـرقم مـن مكتبـي بالمجلة وأنا أشعر بالإثارة، فرد علي صوت أنثوي جـاف، عدواني ربما، هذه إذن هي ألكسندرا.

إنجليزتها أفضل حالا.

فيما بعد سأعرف أن خيباتها الدائمة في الحب جعلـت النبرة الجافة سمة طبيعية في صوتها، ماريا فشلت تماما في

أن تصف العنوان، كل ما فهمته هو أنها في المهندسين، فـي مكان ما له علاقة بشارع أحمد عرابي، اقترحت عليهـا أن نلتقي الساعة التاسعة أمام المركز الثقافي ومن هناك ننطلق.

وصلت أولا.

الشارع معتم ولولا الضوء المنبعث من لافتة مكتـب طيران "لوفتهانزا" لكان الظلام حالكًا.

لم تعجبني رائحة فمي.

بغريزة الصياد القديم استشـعرت خطـورة ذلـك إذا سارت الأمور على ما يرام هذه الليلة، فكـرت أن أخطـف رجلي إلى أقرب سوبر ماركت على ناصية الشارع لشـراء "هولز".

لم تكن فكرة سيئة.

قرص واحد جعل فمي يضـج بالانتعـاش والرائحـة الذكية.

في تمام الموعد، رأيت شبح معطف بلون دم الغـزال يكشف عن نعومة لا تُحتمل للركبتين. البوت القصـير كـان بنفس اللون.

لم أصدق أن هذا الجمال اختارني.

- بوناسيرا سنيوريتا!

بادرتها بالتحية منحنيـا مثـل عاشـق علـى الطـراز الكلاسيكي في فيلم إيطالي بالأسود والأبيض.

- بوناسيرا سنيور!

الأمتار الأولى التي مشيناها سويا في الشارع الجانبي كانت مبشرة للغاية. طولنا مناسب بحيث يمكنهـا أن تضـع رأسها على صدري بسهولة وتغمض عينيها لتنسى العـالم، خطواتنا منسجمة وإيقاع حركتنا الجسدية عموما يتسم بالهدوء والاسترخاء.

سرنا صامتين غير أن حوارا ناعما كان ينفجر بيننـا مثل فقاعات هائمة في الفضاء يضيئها شعاع الغروب.

كادت أن تسقط بسبب البلاط المكسور على رصـيف الشارع الرئيسي.

لحقت بها في اللحظة الأخيرة.

- أسف.. ولكن هذه هي طريقة القاهرة في الترحيـب بضيوفها..

قلت مبتسما.

- لا بأس

قالت وهي تحاول استعادة كبرياءها.

سائق التاكسي الذي أوقفته أخذ يسب ويلعن – كالعادة- يومين محددين: اليوم الذي ولد فيه واليوم الذى عمـل فيـه مضطرا في هذه المهنة.

والسبب طبعا هو المرور.

لا توجد إشارات أو عسكري لتنظيم هذه الفوضى.

سيارات تسير في الاتجاه المعاكس وأخرى محشـورة بين الشوارع الجانبية والشارع الرئيسي مثـل حمامـة فـي جوف حية.

الكلاكسات الغاضبة تتوالى مثل نفير حرب قبائلية.

وسحابة من الأتربة تعلو الرؤوس.

- لطيف جدا!

قالت وهي تشير صوب 3 فتيات بملامح آسيوية تضـع كل واحدة منهن كمامة صغيرة بيضاء على فمها.

- لا بد أنهن يابانيات.

علقتُ.

- لماذا؟

- اليابانيون أكثر شعوب العالم رعبا من فكرة التلـوث الذي يبدو أن مستواه في مدينتنا السعيدة أيقظ لـديهم عقدة تفجير القنبلة الذرية في هيروشيما ونجازاكي.

قلت مازحا.

- هل الأمر خطير إلى هذا الحد؟

سألتْ بجدية.

- ابدا.. فهأنت ترين أجانب من كل الجنسيات، وأهـل البلد أمامك لا يكفون عـن القفـز العشـوائي أمـام السيارات، والحكومة تشكو من أن عدد السكان يزيد طفلا جديدا كل ثلاث ثوان.. لذلك لا داعي للقلق!

حين وصلنا، لم أعط السائق فرصة للمساومة وهو يأخذ أجرته.

- مرحبا بك في حي الحسين.

- نعم الحسين.. قرأت عنـه كثيـرا وعـن مقهـى الفيشاوي الذي كان يجلس عليه أديبكم الحائز علـى نوبل...

- نجيب محفوظ.

- نعم ، آسفة. نسيت الاسم.

لم آت هنا منذ سنتين.

فوجئت بكثافة سيارات الأمـن المركـزي وعناصـر القوات الخاصة في زيها الأسود. يبدو أن شـبح التفجيـرات الإرهابية لا زال ماثلا.

كان لابد من العبور إلى الجانب الآخر.

هبطنا السلالم إلى نفق صغير ضيق يشبه الاستحكامات الألمانية في أفلام الحرب العالمية الثانية. فلاحـات عجـائز يفترشن مدخل النفق لبيع المناديل الورقية والليمون.

طيبات، هادئات، لا ينادين على بضاعتهن ، فـالرزق في النهاية مقسوم.

صوت جهوري يرن في جنبات المكان مـرتلا آيـات الذكر الحكيم بلوعة وشجن.

مقرئ شاب كفيف بطاقية بيضاء يجلس بجلبابه الريفي على البلاط البارد.

أخرجت ماريا قطعة نقدية ووضعتها في يده المفتوحة تنتظر إحسان العابرين.

- تفضل يا باشا.. شرفنا يا بيه!

مندوبون عن المقاهي الشـعبية المتجـاورة ينـادون ويشيرون بعضهم يعترض طريقي.

تلك طريقتهم في المنافسـة علـى خطـف الزبـائن، خصوصا لو كانوا من أوروبا أو الخليج.

- أعرف مقهى صغيرا وهادئًا بعيـدا عـن الضـجة الفظيعة وإلحاح المتسولين هنا.

- وهو كذلك يا مرشدي الخاص

قالت بانتعاش.

ساحة الأسفلت التي تتوسط المساجد التاريخية مغسولة بالماء والصابون والمواد المعطرة.

الشيشة هنا هي كلمة السر.

تكوينات زجاجية بديعة تنتفخ بالماء، والنفس المشفوط يسري عبر الخراطيم الزرقاء الموشاة باللون الفضي فيتوهج الجمر ويحترق المعسل قبل أن تخرج دفقة الدخان من الفـم حاملة أسرار اللذة بنكهة التفاح والأناناس.

تتجاور الشيشة في يد الزبـائن مـن كـل الأعمـار والجنسيات.

الدخان يتصاعد سحبا زرقاء في سماء الليل الســهران للحي الذي يحمل اسم حفيد رسول الله.

- عذرا، ولكن لا يوجد حل آخر!

قلت وأنا أمسك بيدها استعدادا لخوض معركة المرور في الشارع الجانبي الذي ينطبــق عليــه القــول المصــري المأثور:

"الداخل مفقود والخارج مولود"

فالزحام هذه المرة يفوق الخيال.

كتلة بشرية هائلة محشورة في أمتار قليلة مثل سردين معلب.

تركت ماريا تمشي أمامي.

في الحقيقة، لم نكن نمشي. كنا نتحرك بنظرية الــدفع الذاتي.

كنت أحاول حمايتها مــن غابــة الأقــدام والأكتــاف المتدافعة.

لحسن الحظ، لم يكن المقهى بعيدا.

الكراسي والمقاعد مرصوصة في الزقــاق الصــغير تحت عريشة من ورود "ست الحسن" البنفسجية.

الزبائن بالفعل قليلة.

فانوس ضخم يتدلى من السقف محاطًا بعشرات المثلثات الورقية الملونة، والمتدلية في حبال رفيعة متقاطعة، الأعناق تستدير نحونا في محلات الفضة والهدايا على الجانبين.

الجرسون في اليونيفورم الأبيض يقبل نحو ترابيزتنا مسرعا.

- مساء الفل يا باشا!

قالها على طريقة أولاد البلد غامزا بعينه فيما معناه: هنيا لك بصحبة العصفورة الخواجاتي.

بدأ جمال ماريا يفرض حضوره إذن.

آمنت دوما بأن الجميلة ليست هي من تلفت نظر الرجال، بل من تجعل جرس الإنذار لدى النساء الأخريات يدق. هذا بالضبط ما حدث مع تربيزة البنات الجالسات مع أصدقاء هن بالقرب منا. كانت عملية مسح شاملة لماريا تتم في هدوء على وقع كركرة الشيشة في أياديهن. طلبت لها شايا بالنعناع على الطريقة المصرية كما تفضل، وطلبت لنفسي فنجان قهوة مضبوط.

- يعجبني المكان للغاية

قالت وهي تتطلع إلى الأعمدة والنقوش على الجدران.

- لا بد أنك تأتي هنا باستمرار

أخرجت علبه سجائرها.

- أرجو ألا يكون التدخين شـيئًا مزعجـا لـك. مـن الواضح أنك لا تدخن.
- لماذا؟
- أسنانك وشفتاك.
- معك حق، هل أنت مدخنة شرهة؟
- لا، ليس الأمر كذلك. فقط ظللت طوال النهار صائمة عن التدخين، فنحن في رمضان كما تعرف.
- ولكنك لست مسلمة!

اعترضت مندهشًا..

- نعم أنا مسيحية، ولكن الدين هو الدين. كيف أدخـن وحولي موظفون وعمال مسـلمون صـائمون فـي المركز وكان أن حل الصمت.
- يبدو أنك غير مقتنع.

- أخبريني، لماذا تختارين "كليوبـاترا".. لمـاذا لـيس "مارلبورو" أو "جيتان" أو أي ماركة سجائر أخـرى أعتدت عليها من قبل؟

- عندما أكون في بلد جديد أحب أن أحياه بمنطقه هو، وليس بمنطق عاداتي القديمة، لكن قـل لـي لمـاذا لا تبدو مقتنعا بما قلتـه حـول احترامـي لعـادات الآخرين في بلد مسلم؟

لم أرد.

- هل تصوم؟

سألتني.

- هاهو الشاي بالنعناع

قلت وأنا أنظر إلى الجرسون قادما.

اسم المقهى مكتوب بالأخضر أسفل الجيب في القميص الأبيض الذي يرتديه. وضع الكوب والفنجان والسـكر ثـم انصرف.

- ليست المشكلة هي أصوم أو لا أصوم.

سكتُ فجأة.

لم أعرف كيف أشرح لها فكرتي. هنـا، ولأول مـرة أدركت أهمية أن نتكلم نفس اللغة – الإيطالية أو العربيـة – وليس لغة ثالثة وسيطة.

- أكمل.. لماذا توقفت؟

حدقت في عينيها طويلا.

- هل تذهبين إلى الكنيسة؟
- لا، ولكنني أومن بالرب وأعتقد أنني علـى علاقـة طيبة معه روحيا. أعتقد أن هذا يكفي، فإلهنـا فـي النهاية ليس رئيس مجلـس إدارة متفـرغ لمتابعـة جداول الحضور والغياب لموظفي الشركة.
- هل أنت كاثوليكية؟
- نعم.

أحسست برغبة طفولية في الاكتشاف.

كان الفضول جارفًا.

المعلومات النظرية التي تلقيتها عبر الروايات والأفلام يمكنني الآن اختبارها.

- إذن لو تزوجت، سيظل الزواج ساريا إلى الأبد. هل تعرفين أن تعبير "زواج كاثوليكي" يستخدم أحيانًا في

الصحف العربية لوصف العلاقة الخاصة بين أمريكا وإسرائيل؟

- حقًا..؟
- أكيد، هل بيتك قريب من الفاتيكان؟

ضحكتْ.

- تماما مثلما نحن قريبان الآن من الجامع الأزهر.
- كيف عرفت؟
- هل تظن نفسك مرشدي الوحيد؟

ابتسمت في خبث.

- أرجو ألا تشعر بالغيرة، فمرشدي الآخر دليل سياحي عن مصر.
- أوكي

حل الصمت ثانية.

- انتبه لقهوتك.. ستبرد..

قالت وهي ترتشف أولى رشفاتها من الشاي.

- رائع!

لم يكن مذاق قهوتي بنفس وصفها للشاي.

- أخبرني حقًا لماذا لا تبدو مقتنعا بكلامي عن الصوم.. هل لديك موقف منه؟

كانت نبرتها مشوبة بالرجاء.

- لا أعرف بالضبط يا ماريا.. لكن كلامك هذا جعلني – مع فارق التشبيه – أتذكر معظم أصدقائي من الأقباط. إنه الاسم الذي نطلقه على المسيحيين المصريين، فالدين لا يعنيهم في شيء، لكنهم مضطرون لأن يدقوا الصليب على باطن معصمهم، ويعلقوا صورة العذراء في السيارة، ويداوموا على التبرع للكنيسة. بالطبع هذا هو السلوك المعتاد والمتوقع من أقلية تبالغ في مظاهر الحرص على هويتها حتى لا تذوب وسط الأغلبية المسلمة، ومع ذلك إذا ذكر أحدنا نكته جديدة عن الهوس الجنسي عند القساوسة ونحن في صالة التحرير، يتظاهرون بمشاركة زملائهم في الضحك، باعتبار أن المصريين في النهاية – وبغض النظر عن الدين – أولاد نكتة. المشكلة حين يأتي رمضان يفعلون مثلما

تفعلين، بحجة احترام مشاعر الآخر. لا يبـدو لـي الأمر كذلك.

مرة أخرى أسكت حائرا.

- كيف يبدو لك إذن؟
- أرجوك يا ماريا، لا أرغب فـي الكـلام فـي هـذا الموضوع، على الأقل الآن..
- أسفة

وكان أسفًا حقيقيا يطل من عينيها الجميلتين.

- هل تذهب إلى المسجد؟

سألتْ بتردد.

- لماذا تصرين على طرح جميع الأسئلة مرة واحـدة. هذه ليست المرة الأخيرة للقائنا .. أليس كذلك؟

قلت مبتسما.

- أرجوك أجب عن سؤالي وكف عن المراوغة!
- أوكي، أنا لا أذهب إلى المسجد، بمعني أدق كففـت عن الصلاة فيه، حين أصبح ذلك يعني الامتناع عن سماع الأغاني باعتبار أن الموسيقي اختراع شيطاني ولم أعد أصافح نورا – بنت خالتي التي كانت أقرب

لي دوما من أخواتي البنات – باعتبار أن ذلك شروع في ارتكاب جريمة الزنا.

- كيف ذلك؟

مرة أخرى أوقن أنني سأحبها.

سأحب ماريا حبا غريبا مبهما يعتصر قلبـي الصـغير الأخضر، فأمام هذه الحيرة التي تضرب الآن شـواطئ عيونها الزرق، لا أملك سوى أنا أكون عاشقًا.

- أسمعي، تلك قصة طويلة ومعقدة.. سأحاول أن أكون بسيطًا ومختصرا. كنت طالبا جامعيا يحلم مثل آلاف غيره في اتحاد الطلبة بحياة أخرى أكثر عدلا وجمالا للبلاد التي أحبها كما لم يحب شيئًا في حياته. وبمـا أن جميع سيناريوهات التغييـر اسـتنفذتها الأجيـال السابقة، لم يبق أمام جيلنا – جيل التسعينيات – سوى معجزات المجاهدين في أفغانستان. كان الواحد منهم تباغته دبابة روسية تريد أن تدهسه وهـو مطـروح أرضا يئن من جراحة فيمسك حفنـة مـن الرمـال ويذكر اسم الله عليها ثم يلقيها على الدبابة فتحتـرق على الفور. وكانت طائرات الشـيوعيين الملحـدين

تلقي القنابل على المسلمين النائمين، فتتحول القنبلـة إلى حمامة بيضاء ترفرف بعيدا آمنة مطمئنة قبل أن تمس الجنود..

هذه الحكايات كنا نصدقها على الفـور بـنفس بسـاطة تصديقنا لوجود كواكب أخرى في المجموعة الشمسـية. قيل لنا أننا أيضا قادرون على تحقيق المعجزات في قرانا الفقيرة المنذورة للجوع والبرد والبلهارسيا. المطلوب فقط أن يكون إيماننا بالله والتزامنا بتعاليم ديننا مثـل إيمـان والتزام إخواننـا المجاهـدين. وحـين خـرج الـروس مهزومين، خرجنا إلى ساحة كبيرة نصلي صلاة شـكر في الخلاء، غير أن فرحة النصر لم تدم. سـرعان مـا انقلب إخوة الجهاد على بعضهم البعض واستيقظت بـين الفصائل الأفغانية الأحقاد العرقية التي كانت نائمـة فـي ظل وجود عدو مشترك.

وكان الصراع على السلطة مذهلا في عنفه وضراوته.

في البداية قال لنا الأخوة في القرية لا تصدقوا كل مـا تسمعوه في مونت كارلو و B.B.C ، ثم عادوا وقالوا إنهـا

الفتنة وكيد الشيطان، رباني وسياف وشاه مسعود ليسوا أنبياء معصومين.

وأخيرا سكت الأخوة.

لم يعدوا يقولوا شيئًا.

سكتنا جميعا.

أخذت نفسا عميقًا وأنا أشعر بالمـأزق. لقـد تحولـت "الخروجة" الرومانتيكية إلى دائرة مستديرة في مؤتمر لحوار الأديان! يبدو أنني كنت متفائلا أكثر من اللازم فـي مسـألة "هولز".

- الخلاصة يا ماريا أنني لم أعد أذهب إلى المسـجد، ولكن الأمر ليس بسيطًا ومنتهيا كما هو حالـك مـع الكنيسة..

- ولكن..

- أرجوك، لن أتورط في هذا النقاش أكثر من ذلك!

قلت مقاطعا بشيء من الحدة.

- أوكي.. كما تحب

أحسست فجأة بالذنب. ماذا فعلت هذه الوردة القادمـة من روما على جناح البراءة والحساسية حتى أورطها في كل هذا؟

فكرت في الاعتذار، لكن كم بدت كلمة "آسف" سخيفة إلى أبعد حد.

اقترحت أن نتمشي قليلا لاستكشاف المكان.

ناديت الجرسون.

كان ممتنًا للبقشيش الكبير، وتظاهر للأسف للسـرعة التي غادرنا بها جنته الصغيرة.

- رحلة سعيدة يا برنس!

ودعني بعاطفية مفتعلة وكأننا على وشـك أن نحتضـن بعضنا البعض أمام صالة الرحيل في المطار..

- 6 -

هبت فجأة دفقة نسيم منعشة.

سرنا باتجاه العمق.

نحو مزيد من العتمة والهدوء وأبواب المحلات الصغيرة التي أغلقت مبكرا. لا زالت تلك الأزقة الضيقة تحمل رائحة تاريخ سرى من المؤامرات والمكائد حين كانت الدماء الساخنة تتدفق فجأة، وتجحظ العيون في رعب، ولا تكتمل أبدا صرخة الموت الغادر.

ثمة سلطان كان يهز رأسه باسما، راضيا ويقذف بكيس من الذهب ليتلقفه قائد الشرطة مكافأة له على التخلص من شاعر غزلي رأى ديوان المظالم يضج بالشكاوى والقضاة صامتون فتحول إلى معارض سياسي. وفي ظهيرة اليوم التالي ثمة إمام يدعو من فوق المنبر في صلاة الجمعة:

- أدام الله في عمر السلطان! أعز الله السلطان!

فيردد المصلون خلفه.

- آمين!

كنت أشعر بأرواح هؤلاء الذي قُتلوا غدرا قبل قرون ترفرف بالقرب منا ونحن نسير في "عطفة خوخة".

أحد الكلاب الضالة تطلع إلينا برهة ثم عاد ينكّس رأسه ويطلق عواء خافتًا حزينًا قبل أن يغيب في الظلام.

ماذا تريد هذه الأرواح؟

لا أستطيع أن أفعل لها شيئًا.

تاريخ أمتي كتبه موظفون في قصر السلطان، والقتلى راح دمهم هدرا دون أن يعرف أحد شيئًا عن قضيتهم النبيلة.

- لا أريد أن أكمل في هذا الاتجاه

قالت في هدوء.

استدرنا.

- فيم تفكر؟

سألتْ.

- في قصص الحب التاريخية التي ولدت في هذا المكان، نادرا ما كان الرجل يرى المرأة قبل ليلة الدخلة، لكن للعشاق حيلهم كما تعرفين!

كذبتُ حتى لا أزيد الموقف سوءا.

- بالتأكيد.

ضحكتْ.

- أحب هذا الحي. يذكرني بدمشق القديمة التي أخذت فيها صورا رائعة.

قالت وهي تمد خطواتها أكثر.

كنت راضيا تماما عن سير عمليات الإرسال والاستقبال بين جسدينا حتى الآن.

في البداية كانت تتحفظ كلما تلامس كتفانا أو تلاقت أصابعنا بالصدفة. في الشارع الضيق المزدحم، استسلمت مثل كتكوت مبتل لحضني غير المكتمل.

في المقهى لم تمانع من اقتراب ساقي الطويلتين وهي تضع ساقًا على ساق. الآن يبدو أن حقلا مغناطيسيا لا مجال لمقاومته يحيط بجسدينا، مثلما تحيط الهالة النورانية برؤوس قديسين يجلسون على مقاعد من هواء وتخرق نظراتهم قشرة السماء.

وصلنا إلى قلب "الحسين" شارع طويل مزدحم بالأضواء وضجة البيع والشراء، فتارين سوق البازار تزدان بنماذج التماثيل والمسلات والحلي. هنا بازار متخصص في كتابة أسماء العشاق بالهيروغليفية على ورقة بردي. التسليم بعد ساعة. في خانة السعر – كما يوضح الإعلان الخارجي

– كُتبت عبارة: "خلي عنك خالص" هذا يعني أن هذه السلعة للأغنياء فقط.

محلات أخرى تخصصت في الكريستال.

بدت أهرامات الجيزة وأبو الهول والكعبة والمسجد الأقصى محملة برقة لا تصوف حين تحولت إلى مجرد نماذج شفافة منحوتة من هذه المادة التي تنتمي للسماء.

- أوه! أنتظر! أريد أن أعرف السعر!

أشارت نحو "الكوفيات" العريضة الطويلة في محل صغير يكاد يكون مجرد صندوق صغير بابه من الحديد.

- أريدك أن تسأل أنت عن السعر، لأنني لو سألت سيبالغ البائع باعتباري سائحة.

هذا إذن هو الشيء الوحيد الذي لفت نظرها.

نفس الكوفيات التي كانت حكرا على الرجال من البدو والفلاحين، صارت الآن موضة حريمي ووسيلة مجربة لإثارة هوس السياح.

الفارق الوحيد هو تزيين الكوفية العصرية بهذا الكم من الزخرفة والنقوش في حين أن كوفية جدي حتى في ليلة عرسه كانت سادة تماما.

البائع نظر نحو ماريا أولا حين سألته. كانت تقف على البعد تتظاهر بتأمل قطع الكريستال داخل الفاترينة.

قال رقمه بهدوء وحسم.

رفض أي محاولة للتنزيل.

أدركت أنه يعرف لمن ستؤول الكوفية. ماريا حسبت الرقم بعملتها فوجدت أنه 5 يورو.

- أوكي. حين أستلم ثمن أول لوحاتي التي بيعت بالأمس، سأقوم بجولة شوبنج هنا.
- سأكون معك في هذه الجولة، وسنصل إلى نصف الأسعار التي يبدأون بها، فكل شيء هنا خاضع "للفصال".
- بالطبع. الأمر نفسه يحدث عندنا وربما أكثر في الأسواق الشعبية بإيطاليا.
- حمدا لله، لقد بدأت ثقافة البحر المتوسط تتعطف علي وتمنحني شيئًا مشتركًا بيننا.

قلت بمرح محاولا أن أخفي إحباطي من عدم دهشتها أو امتنانها لفكرة "الفصال" حتى نصف السعر.

وصلنا إلى الميدان الرئيسي مرة أخرى.

المآذن الشامخة حولنا تحمل البصمة المميزة لفن العمارة الفاطمي. إنه الوجه الآخر للسلطان. دقت ساعة الميدان الواحدة. كانت إذن ساعة الحسم التي سيتوقف عليها مصير وشكل هذه العلاقة، فنحن لن نظل نتسكع هنا إلى الأبد، كنت أعرف أن الدقائق التالية ستحدد اتجاه الريح في شراييني، وإيقاع نبضاتي في المستقبل.

استندنا بظهرنا إلى السور الحديدي للحديقة الصغيرة.

رفعت قدمها اليسرى إلى الحافة الرخامية.

- هل جربت أروع شاي في مصر؟

سألت دون مقدمات.

حدقتْ في عيني طويلا ثم انفجرتْ فجأة في ضحكة طويلة اهتز لها جسدها بأكمله شعرت بالارتباك، فقد أصبح منظرنا مثيرا لانتباه أحد ضباط الشرطة، وفضول سيدة محجبة تفترش الحشائش في الحديقة وهي تفرد ورق الجرايد وتوزع سندوتشات الفول والطعمية على أطفالها.

- آسفة!

قالت بصعوبة وهي تحاول السيطرة على نفسها.

وضعت يدها على كتفي فازددت ارتباكًا.

- أعتذر مرة أخرى، ولكن الرجال فعلا يتشابهون مهما تغيرت اللغة أو اختلف لون البشرة!
- لا أفهم شيئًا.
- أنت تسألني أن كنت قد جربت أروع شاي في مصر. سأجيبك بأنني أفضل الشاي العادي بطعم النعناع، ستقول أن هناك خلطة سرية لصنع شاي لا يقاوم. وبالطبع مكونات هذه الخلطة لا توجد إلا في مطبخك. وبالتالي علينا أن نطير فورا إلى بيتك حتى لا تفوتني هذه الفرصة الذهبية، ستتظاهر بالجدية وأنت تقول بنبرة خاصة "صدقيني هذه فرصة لا تتكرر". وحين ينطلق بنا التاكسي باتجاه البيت ستدير في رأسك كل السيناريوهات الممكنة لمرحلة ما بعد إغلاق الباب علينا، سيكون هذا ممتعا ومثيرا لخيالك حتى أنك ستكون كريما مع السائق بشكل استثنائي.

لم أعرف بماذا أرد.

كانت قد هدأت قليلا.

هستيريا الضحك المفاجئ أصبحت تحت السيطرة.

- هل تشعر بالصدمة الآن لأنني أحبطت مخططاتك؟

سألتني وعيناها تلمع ببريق الانتصار.

أخرجت علبة مناديل "فلورا" وجففت دمعات تتألق تحت ضوء النيون مثل حبات لؤلؤ لم يعرف الغواصون لها مثيلا.

لم تكن تنتظر إجابة.

كانت مثل ملاكم أطاح بخصمه بالضربة القاضية بعد مرور 30 ثانية فقط من بدء الجولة الأولى ثم انحنى عليه ليهمس في أذنه: هل تود أن تحاول ثانية يا عزيزي؟ بينما الجماهير الغفيرة تطلق صيحات الاستهجان والاستياء بسبب انتهاء المباراة سريعا دون إثارة أو دماء!

- أرجوك! لا تبتئس هكذا، فالعيب ليس فيك، بل في العولمة التي جنت على خيال الرجل في الألفية الثالثة.

كنت على وشك أن أسألها ماذا تقصد، غير أنني ضحكت أخيرا ضاربا كفًا بكف.

- لست مضطرا لأن تقول أي شيء.

- أوكي.

قلت مستسلما..

ولعدة دقائق كنا نسير في صمت دون أن نعرف أين تقودنا خطواتنا..

- 7 -

طائر جميل كان يحط منذ لحظات على كفي المفرودة ولسبب غير مفهوم شعر فجأة بالذعر وطار بعيدا.

إحباطي بلغ الذروة.

- هل أستطيع أن أقول شيئًا؟

سألتها.

- بالتأكيد.

- ولكن إنسان العصر الحجري هو الذي سيتحدث هذه المرة وليس رجل العولمة.

- سآخذ حذري إذن في هذه الحالة.

قالت وهي تبتسم..

- أريد أن أصحبك إلى الكهف بعيـدا عـن العيـون الفضولية. صدقيني مستعد أن أدفع نصـف عمـري مقابل أن تقولي نعم.

- يبدو أن شايك الرائع لا يقدر بثمن.

زاد قوس "الخباثة" المحببة في ابتسامتها..

- تاكسي!

أردت أن أضعها على الفور أمام الأمر الواقع.

لا أريد أن أترك فرصة للتردد أو المساومة، الحسم هو الدرس الثمين الذي أهدتني إياه فتاة مغربية في الغردقة قبـل 3 أعوام. كنت مدعوا ضمن وفد صحفي لحضور المهرجان الأول لأغاني الفيديو كليب، ومثل بقية زملائي الصحفيين، لم أقبل الدعوة إلا بهدف واحد هو الفرجة على نهود السائحات الألمانيات وهن يأخذن حمامات شمس.

كنا نسمع دوما أن الألمانيات بالذات هن الأكثر كرمـا بين الجنسيات الأخرى في هذا الموضوع، ويبـدين تسـامحا مدهشًا مع المتطفلين من المصريين.

القدر كان له رأي آخر.

بعث لي بهذه المغربية التـي فـاق جمالهـا كنـوز حسناوات الراين.

سار كل شيء على ما يرام، لكنها جاءت أمـام بـاب غرفتي في "جولدن فايف ريـزورت" ورفضـت الـدخول. إلحاحي ونحن جالسان على كراسي بامبو وخلفنا غابة مـن النخيل والموالح لم يزدها إلا دلالا.

جربت كل الحيل دون فائدة.

لمحت اثنين من زملائي يقتربان، فتظاهرت بالغضب بسبب ظهورهما كأن كارثة على وشك الوقوع.

! Shit-

صرخت على طريقة الأفلام الأمريكية فاتحـا البـاب فجأة . دخلت دون أن أكلمها أو أنظر إليها، فتبعتني فورا في صمت ودون تعليق.

مع ماريا، فالاستعجال في توقيف أول تاكسي كانـت نتيجته سلبية، جاءت السيارة ضيقة وقديمة من نوعية "فيات". أفضل عادة "بيجو 504" فهي واسعة ومريحة وقوية. السائق توقف في آخر لحظة بعيدا عنا بعدة أمتار. يبدو أنه ظن أننا سنغض النظر عنه فأطلق عدة كلاكسات غاضبة يستحثنا فيها على سرعة اللحاق به. لم يفعل كما هو معتاد ويرجـع هـو إلينا.

ركبنا معه فاكتشفت الأسوأ.

كان السائق ينتمي إلى هذه النوعية التي تزداد جاذبتيها في الشارع يوما بعد يوم. يطلق لحيته. يرتدي جلبابا أبـيض قصيرا تحت سويتر بني من الجلد ويزم شفتيه على غضـب

أبدي تجاه العالم، فيما نظرة جامدة تلوح في عينيه الضيقتين. لا بد أن مصحفًا صغيرا يقبع في جيب الجلباب الواسع.

- كورنيش المعادي لو سمحت.

لم يرد علي.

انطلق مباشرة.

الكاسيت مفتوح بصوت عالٍ على تسجيل لخطبة دينيـة صاخبة يلقيها شيخ لا يكاد يتمالك نفسه من الانفعال.

- هل يمكن أن تسأله أن يخفض الصوت قليلا؟

سألتني ماريا في هدوء وهي تميل علي.

اضطرت إلى الابتعاد بأذني سريعا عن مرمى شفتيها. أردت أن أتحاشى أي مظهر من مظاهر الحميمية بيني وبين أجنبية تجلس بجانبي عارية الركبتين على مقعد خلفي معـتم بعد منتصف ليل رمضان، في حضور شـاب أعـرف أنـه ينتظر أول شرارة لكي ينفجر في وجهي باسم الغيرة علـى حرمات الشهر المبارك. لابد أن ماريـا لاحظـت جلسـتي المتحفظة وحرصي على عدم تلامس ركبتينا.

- أعرف أن الصوت لا يطاق فعلا، ولكننا سنحاول أن نحتمله احتراما لمشاعر السائق.

وهززت رأسي علامة التأثر والأسى.

- ماذا؟

سألتني.

- يبدو أنه فقد شخصا عزيزا، فقرر أن يغرق بأحزانه في هذه الخطبة التي تتحدث عن الصبر كملاذ أخير عندما يختطف الموت أحباءنا.

الحقيقة أن الخطبة كانت تتحدث عن علامات يوم القيامة.

قال الشيخ أنه لن تقوم الساعة حتى ينزل الـروم فـي "دابق" – أشار إلى منطقة حدودية بـين سـوريا وتركيـا – فيقولوا للمسلمين: خلوا بيننا وبين أسـرانا، أي يريـدون أن يقتلوا أسراهم الذين أسلموا، فيقـول المسـلمون "لا" فتقـوم الحرب وتنتصر فيها راية الإسلام. أضاف الشيخ أن علمـاء الدين يؤكدون أن المقصود بالروم: أوربا وأمريكا. اعتدت أن أسمع نبؤات دينية تتحدث عن فنـاء اليهـود علـى أيـدي المسلمين، لكن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها الغرب – على إطلاقه – يتم اقتحامه على هذا النحو، يبدو أن الشـيخ شعر أن كلامه في حاجة إلى مصداقية أكثر، فشدد علـى أن هذه النبوءة وعد حق ورد فـي حـديث شـريف "صـحيح"

للرسول "صلي الله عليه وسلم"، واستطرد: ليسـت مصـادفة إذن أن نرى أمريكا تضع سوريا الآن ضمن قائمـة الـدول التي ترعى الإرهاب، ويكثف البنتاجون تواجده العسكري في قاعدة أنجرليك التركية!

- آسفة.. حقًا آسفة.

قالت ماريا بتأثر.

مرة أخرى تنجح أكاذيبي.

خرجنا من الحسين.

أصبح الكلام شبحا يرفرف علينا بعباءته الهائلة.

لا توجد أعمدة إنارة على الجانبين، حيث تمتد مقـابر الفقراء لتسد الأفق.

أصبح صوت الشيخ أكثر رنينًا وجلاء. لاحـت قلعـة محمد على بأنوارها الشاحبة وسط الظـلام المسـتتب. فـي النهار تضوي أبراجها الفضية تحت وهج الشمس، أمـا الآن فتبدو مثل فزاعة بائسة لا تخشاها طيور الحقل.

- هل لا زال أمامنا الكثير؟

سؤالها جعلني أنتبه إلى أن هذا الطريق ربما لم يكـن الاختيار الأفضل، فنحن نسير بأقصى سرعة مع ذلـك لـم تظهر بوادر المعادي بعد.

- لا تقلقي. أصبحنا على وشك الوصول.
- فى أي المواقع نحن بالنسبة لخريطة القاهرة؟
- لا تسأليني أرجوك عن أي شيء يتعلق بالجغرافيـا.

لقد كانت هذه المادة عقدتي المزمنة وأنا طالب.

انتهي الوجه الأول من شريط الكاسيت.

حمدت الله أن السائق اكتفي بهذا القدر مـن مهرجـان الإيمان الصاخب ولم يقلب على الوجه الثاني. مد يده وأضاء المصباح الصغير في السقف. انتظرت لأعرف ماذا يريد أن يفعل بهذه الإضاءة.

لم يفعل شيئًا.

هل هي رسالة؟

هل يريد أن يحذرني من الاستسلام لوساوس الشيطان والإقدام على آية ملامسات محرمة؟ بدأ يعدل للمرة الرابعـة أو الخامسة المرآة الداخلية وعرفت السبب، يريد أن تكـون الركبة العارية تحت مرمي نظراته مباشرة. كنت على وشك

أن أطلب من ماريا أن تستر نفسها بحقيبـة يـدها، لكننـي تراجعت في اللحظة الأخيرة. لم أشأ أن أحملها ما لا طاقـة لها به من هواجس شرقنا الأوسط السعيد.

- هذه هي بداية طريق الكورنيش.. لقد اقتربنا

قلت بنبرة من يزف بشرى وأنا أنظر عبر النافذة.

سمعت ماريا تطلق زفرة ارتياح..

موجة من الحنان غمرتني فجأة..

وددت لو أحتضنها..

أوشوش القمر والنجوم..

أن أهمس: هل كانت قطتـي الصـغيرة خائفـة مـن الطريق المعتم المهجور أم من السائق المريب؟

اللافتات الضوئية تتوالي لمطاعم ومحـلات! كـوفي شوب أندريا، فيش ماركت، جراند كافيه، مـارنجو. أنـوار البواخر العائمة تمرق على البعد مثل ومضات سريعة لنشوة عابرة..

سواري المراكب الشراعية الضخمة آلهة طيبة تغفـو قليلا..

- أنظري! هذا هو مبني المحكمة الدستورية العليا.

وأشرت إلى مبني كبير، لونه بيج، مصمم على الطـراز الروماني بأعمدته المميزة.

شعرت بشيء من الفخر.

لم تكن هذه التحفة المعمارية مجـرد ميـراث شـيده كالعادة أجدادي الفراعنة، بل إنجاز حديث تخلى فيه الأحفـاد عن عشقهم للكسل.

- لم تقل لي أن الطريق سيستغرق كل هذا الوقت.

قالت تعاتبني.

- اعتبري أننا وصلنا.

وبالفعل لم تمض سوى دقائق قليلة حتى لاحت لافتـة "مرسي النهر الخالد" ثم اللافتة الضـخمة لنـادي الأشـغال العسكرية.

- هنا لو سمحت.

قلت للسائق فداس الفرامل فجأة واهتزت السيارة.

لا أعرف لماذا سألته كم يريد أجرة رغم أن هذه ليست عادتي. طلب رقما مبالغًا فيه بشكل أذهلني.

الانتهازية والطمع سلوك أكثر من طبيعي لدي سـائقي التاكسي في القاهرة، لكن الغريب أن هذا السائق لم يبرر مـا

يطلبه بواحدة من الحجج المعتادة مثل غلاء البنزين أو زحام المرور أو تأخر الوقت. قال الرقم في هدوء وثقافة كأنه يقرر حقيقة كونية لا تقبل الجدل.

لم أجادله.

اكتفيت بتوديعه بنظرة حاقدة متخيلًا مشاعر الانتصـار التي لا بد أنه يمتلئ بها الآن وهو يتركنا ليستدير عائدا مـن حيث أتى.

وجدت البواب بصحبة عدد من عسـاكر "المراسـلة" وسائقي الميري!

لماذا أنسى دوما أن عمارتي تقع ضمن مجموعة أبراج معروفة في المنطقة باسم "أبراج الشرطة" وأن الملاك تتدرج رتبهم من نقيب إلى لواء؟ بعضهم يسكن فـي شـقته هنـا، والبعض الآخر يسكن في المهندسين أو مدينة نصر ويتـرك شقة المعادي للإيجار.

الاستثناء الوحيد هو مالك شقتي.

محاسب ورث الشقة عن والده الذي توفي برتبة عقيد.

يوم توقيع عقد الإيجار في شقته بباب اللوق حـذرني من استضافة صديقات في الشقة: "أنا شخصيا لا أمانع، ولكن المشكلة في رئيس اتحاد الملاك، لواء متقاعد لكن متدين جدا وحنبلي على الآخر، ومشـغل البـواب والعيـال العسـاكر جواسيس لحسابه".

كنت أعرف أنه يبالغ قليلا من أجل تخويفي. البـواب أغرقته بكل أنواع الرشاوى حتى يترك البنـات صـديقاتي يصعدن دون مشاكل. العساكر لم يحدث منهم أى شيء سيئ

حتى الآن. صحيح أن عيونهم وهم واقفون مع "جمعة" فـي الجراج تحولت إلى كاميرات ترصد بالتصوير البطيء شكل وخطوات "ماريا" ولكن لم يكن هذا ما يقلقني.

- لا بد أن أعتذر لأن الفوضى في شـقتي لا تطـاق، فهذه أول مرة أستضيف فيها شخصا مـن الجـنس الناعم.

قلت ونحن في الأسانسير.

- أول مرة فعلا؟

وقالت عيناها أنها لم تصدقني.

أمام باب الشقة بحثت طويلا – كالعادة – عن المفتاح اللعين الذى أنسى كل مرة أين وضعته وسط متاهة الجيـوب الصغيرة والكبيرة الموزعة ما بـين البنطلـون والقمـيص والجاكت.

- تفضلي..

قلت وأنا أغلق الباب خلفنا.

تطلعت ماريا إلى الصـالون الكبيـر الخـاوي علـى عروشه إلا من طقم البامبو و 3 أرفف صغيرة مثقلة بحمولة كتب.

البلاط عار تماما من أي قطعة سجاد.

الجدران تخلو من أي لوحات.

الانطباع الأول الذي يأتي عادة لضيوفي هو أن الشقة لا زالت في مرحلة التجهيز وأنني لم أسكن فيها بشكل مستقر بعد.

سحبت لها أحد الكراسي، فأشارت بعينيها نحو المكتبة وهي تخطو باتجاهها لتلقي نظرة.

"أوه! هذه صورتك!"

قالت وهي تمسك بكتابي الأول.

مجموعة قصص قصيرة.

على الغلاف الخلفي صورة فوتوغرافية لي.

أدهشتها فكرة أنني مؤلـف أيضـا. وللمـرة الأولـى لا تتحفظ نظراتها في التعبير عن إعجاب خاص. اختـارت عشوائيا إحدى القصص وطلبت مني أن أترجمها.

فاجأني الطلب.

القصة بعنوان "عشيقة الحاج معوض" وقلت باختصار أنها تحكي عن الحب الأكبر في حياة جدي الذي لم يذهب إلى مكة ولم يطف حول الكعبة، ومع ذلك حصل على لقب "حاج"

لاعتبارات تتعلق بالسن واحترام الشيخوخة. وقع الرجل فـي غرام "غازية" من غوازي الغجر. هج وراءها فـي الغـرب والكفور حيث كانت تحيي أفراح الفلاحين.

شهر كامل وهو يطاردها قبل أن يرده أولاد الحـلال إلى عقله وامرأته، حين مات الحاج معوض، اكتشـف أهـل القرية أن وشما لصورة الغازية منقوش على جسده.

جاء شيخ المسجد وقال أن جدي لم يكن يصـلي وأن صورة الزانية لو ظلت على جسده ستتحول إلى قطعة مـن نار جهنم ينقلب عليها وهو في القبر. وعلي مدار سـاعتين، كانت الجثة محل أخذ ورد قبل أن يغسلوها ويرشوها بعطـر رخيص ثم يحملوها في الكفن إلى الجامع ومنه إلى القرافـة ليستقر جدي في باطن الأرض عاشقًا هزمته مياه النار التـي أزالوا بها صورة الحبيبة من على ساعده المفتول.

- غريب جدا..

قالت في همس.

- يبدو أن العشق مرض قديم في سلالة العائلة.

تابعتْ وهي تبتسم.

- جدي كان عاشقًا حقيقيا.

قلت بشرود.

- حسنًا. أنا في انتظار أروع شاي في مصر!

دقيقة واحدة.

وانطلقتْ إلى المطبخ.

أشعلتْ البوتاجاز.

الأزرق الصافي في نار الشعلة يغريني عـادة بالتأمـل وتطاير الأفكار، لكني هذه المرة كنت مشغولا بهـاجس واحد: شخص غاضب يدق فجأة الباب في عنف وحـين أفتح يصرخ: يا ناس.. يا مسـلمين.. تعـالوا شـوفوا!

أو دقات خفيفة وشخص أكثر دبلوماسية وتهذيبا يقـول: سننهي كل شيء في هدوء!

عليك فقط أن تخرجها الآن فورا!

مثل هذه السيناريوهات السوداء كانت تلح على ذهنـي وتأكل مخيلتي وأنا أرى ذرات الشاي تتقافز مثل موجة بنيـة هائجة بعد أن وصل الماء في البراد إلى درجة الغليان.

نحن في رمضان.

لم يبق على آذان الفجر الكثير.

باب شقتي مغلق على مغامرة عاطفية مع فتاة أجنبية.
اكتملت إذن عناصر الفضيحة. الآن يمكن لأي شخص – لا يصلي حتى – أن يعمل لي "هيصة وزمبليطة" معتبرا أنني استفز المشاعر الدينية لسكان العمارة!

خرجتُ إلى ماريا أحمل كوب الشاي التاريخي على صينية تركي منقوشة بالطيور والورود هي الشيء الوحيد الذي يحمل لمسة خاصة في منزلي. أختي المتزوجة أهدتني الصينية حين عرفت أن المستأجر يستلم الشقة "ع البلاط" طبقًا لنظام الإيجار الجديد.

- فنانتي المدهشة!

ناديتها وأنا أقدم الشاي فلم تلتفت.
ظلت مستغرقة في الكتاب الجديد الذي تتصفحه.

كان يضم نماذج ملونة من الخط العربي لفنانين أتراك وإيرانيين.

شعرت فجأة بحركة حميمة بين فخذي.

اندهشت ، فأنا لم أفكر في أي شيء يستدعي ذلك، ولو على مستوي الخيال.

فتحتُ النافذة..

الهواء يضرب بعنف الأشجار الصغيرة عنـد مـدخل العمارة المجاورة..

كانت عتمة الليل مهيمنة..

- 9 -

لم أعد أحتمل كل هذه الحرائق الصغيرة التي تشـتغل تباعا في جسدي.

تركت شفتيها وهبطت سريعا إلى منطقتي المفضـلة: العنق.

تأوهاتها وهي مغمضة العينين خنجر من نور يقـص شراييني.

اشتهيت شعرها الناعم الأحمر اشتهاء شـيخ صـوفي لكعب أنثى. ألعق خصلاته القصيرة وأدس أنفي فيه لاستنشق عطرا من الجنة.

أهبط بلساني إلى ما وراء الأذن.

هنا فقط بدأت أنتبه إلى مصدر الألم الخفيف في كتفي. كنت تنشب أظافرها فيه.

بدا ذلك مثل حركة لا إرادية..

كلما انتشت أكثر غرست أظافرها أكثر..

اللذة السماوية النابعة من بطء اللمسات الأولى تنسيني مؤقتًا هذا الشعور، العذب مرة والموجـع مـرات. مـددت أصابعي إلى أزرار معطفها، فأمسكت ماريا بيدي تمنعني.

التقت أعيننا للحظة بدت تاريخًا سريا مـن المخـاوف والأشواق.

أسئلة كثيرة حائرة قرأتها في عيونها قبـل أن أجيـب بهزة خفيفة ومطمئنة من رأسي.

انحنيت على أصابعها أقبلها إصبعا إصبعا.

خلعتْ المعطف.

وضعته على الكرسي بحرص وغبنا طويلا في حضن طويل.

- تمنيت هذا منذ أول لحظة رأيتك فيها.

قالت بنبرة خافتة.

يغرم رجال برج الحمل – أمثالي – بسماع هذا النوع من الاعترافات.

ضغطة قوية وناعمة جاءت بمثابة ردي.

لا بد أن وقتًا طويلا قد مر لأنني بدأت أشـعر بـألم خفيف في قدمي. بصعوبة شديدة، انتزعت نفسي مـن دفء ملكتي الملائكية. مددت يدي أدعوها للرحلـة الخالـدة فـي اجتياز الممر الفاصل بين الصالون وغرفة النوم.

لم تستجب.

- لا تكن متعجلا!

كانت نبرتها ملونة ببحة شهوانية.

- لست متعجلا، ولكنني لن أطيق الوقوف أكثر من ذلك فأنا أعاني من "فلات فوت".

- حقًا؟

- للأسف، ثم أنني أخشي عليك من البرد.

سحبتها من يدها إلى غرفة النوم، في الواقع، لا يبـدو هذا اسما دقيقًا للحجرة فشقتي تحتوي على غرفتين بسريرين أتناوب عليهما بنفس القدر تقريبا.

غرفة البلكونة يوجد فيهـا مكتبـي والأخـرى فيهـا الدولاب، وباستثناء قطع الأثاث الأربع تلك، لا يوجد سـوى عراء البلاط والجدران وفوضى الكتب والمجلات والجوارب وشرايط الكاسيت الملقاة هنا وهناك. اتجهـت بماريـا نحـو غرفة الدولاب التي بها أيضا بلكونة صـغيرة تطـل علـى "المنور" وعلى حبل غسيلها القصير أنشر ملابسي.

- انتظر!

قالت وهي تنظر إلى الحجرة الأخرى ثم عادت ونظرت إلى غرفة الدولاب.

- أفضل هذه.

وأشارت إلى غرفة البلكونة.

استجبت لرغبتها رغم وجود سبب وجيه للاعتـراض على اختيارها.

كنت مطروحا على ظهري وماريا تخمش بأظافرهـا وتعض بأسنانها مثل أي نمرة مستثارة.

خلعت عني البنطلون فأحدثت التوكة المعدنية للحـزام الجلدي العريض شخللة محببة، فيما ظلت هي بـ"الأندروير"

"أرجو ألا تكون سادية تماما"

دعوت السموات السبع والليل البهيم فثمة إشراقات من المتعة الحسية تضيء وجهها في العتمة الخفيفة كلما سمعتني أتأوه، وكانت في الواقع تعرف كيف تنوع أسـاليبها بحيـث أشاركها التلذذ وأنفرد بالآهات.

"ترى ماذا سوف يحدث الآن"؟

تساءلت وأنا أراقبها مغمضة العينين تحتويه وتعضـه خفيفًا مثل شخص يتذوق بحذر نوعا جيـدا مـن الطعـام. التقطت بمهارة طرف "الكلوت" بفمها وأنزلته قلـيلا.. قلـيلا ليتحرر فجأة عمود الأشواق الذي طال حبسه خلف سور من

القماش القطني الناعم، هكذا أدخلتني يد الله في التجربة: إمـا قطعة لحم مصرية بادرة أو لبـؤة أوربيـة متعطشـة لـدم الحبيب..

لا توجد منطقة وسطى..

أصبح صوت تنفسها ثقيلا وهي تمسـح خـدها فـي رأسه..

تحاشيتها مبتعدا وأنا أرتدي الكلوت.

- ماذا حدث؟

- سألتني منزعجة.

- لا بد أن نذهب للغرفة الأخرى

- لماذا؟

لأن البلكونة في هذه الغرفة من الزجاج كمـا تـرين ويستطيع الجيران رؤيتنا بسهولة قلت وأنا أشير إلى البلكونة في العمارة المقابلة.

بدا على وجهها الانزعاج بسبب موقفي المفاجئ، لكن ما باليد حيلة. فمن يدري، ربما خرج أحد الجيـران ينشـد نسمة عليلة بعد تناول السحور خصوصا أن البلكونة المقابلة

لها "تندة" ومجهزة ب 3 كراسي بلاستيك من أجـل "قعـدة" لطيفة.

- أوكيه

قالت وهي تخطو حافية القدمين باتجاه الممر.

أطفأتُ النور فاستتب الظلام أكثر في الغرفة.

- انتهت المشكلة.

علقتْ وهي تجلس على ركبتي وتلعـب فـي خصـلات شعري.

سالت بين شفتي جداول مترعة بالحنان الشرس وأنـا أبوسها كما لو كانت هذه آخر قبلاتي في الحياة.

وحين مست أطراف أناملي الحلمـة بشـكل عفـوي، انتفضت تلقائيا وهي تشهق.

لا أعرف كيف خلق الله ماريا بهذه الحساسية..

حملتها فجأة بين ذراعي فرنت ضحكتها العذبة وهـي تشبك أصابعها مثل الأطفال خلف رقبتي.

هذا الجسد الذي تحلم به عارضات الأزياء لا يمكن أن يكون قد خلق لشيء آخر غير ملاقاة الأمواج العنيفـة التـي تنطلق الآن من شواطئي.

- هل أنت مصمم؟

سألتني باستسلام

- أكيد

جاوبت وأنا أذهب بها إلى فراش الغرفة الأخرى.

- هل هذه هي طريقتك.. الديكتاتورية مع النساء؟

- بالضبط.

وضعتها برفق على ظهرها، كما لو كانت تمثالا صغيرا من الكريستال أخشي أن يتهشم.

قبلتها كثيرا في جفونها..

مر ما يقرب من ساعة.

كنت زورقًا مطاطيا تتقاذفه الأمواج الهائجة في نهر هادر عنيف. الصخور الحادة المدببة فخاخ تنتظرني بامتداد الفضاء الوردي للحلمة المنتصبة، وعمق تجويف السرة، والنعومة المستحيلة لبشرة القبة الصغيرة البازغة.

ماريا كانت الربان الذي أنقذني مؤقتًا من الانشطار.

- بيانو! بيانو!

عرفت فيما بعد – بغريزة الغرام وحدها – أن "بيـانو" كلمة ذات أصل إيطالي تعني "البطء" وأن حبيبتي نست – في نشوة الحب – أن الإنجليزية فقط هي لغتنا الوسيطة.

كانت تناشدني عدم الاستعجال كلما هممـت بالتهـام قطتي العارية ، فتهمس في أذني بالكلمـة الإيطاليـة، التـي انتقلت للإنجليزية بنفس النطق لحسن الحظ ولكن بمعنى الآلة الموسيقية الشهيرة..

بدا صوت الشاحنات أعنف ضجيجا..

ينبثق على البعد ويتعالى رويدا.. رويدا.. حتى يبدو أن ثمة عربة ضخمة هائلة على وشك ابتلاع الشقة حـالا، ثـم ينحسر الطوفان ويتلاشى الصوت تدريجيا مثل وداع حـزين على رصيف المواني.. يظهر صوت جديد ثم سـرعان مـا يتلاشى هو الآخر وهكذا..

- دعنا نسترخي قليلا.

لم أستطع تلبية دعوتها إلا دقائق معدودة استلقيت فيها على ظهري بينما كانت تحدق في ملامح وجهي بنظـرة أم لا تصدق نفسها من الفرحة وقد رأت للمـرة الأولـي مـاء الرجولة في سروال ابنها البكر. تخرج من شنطة يدها علبـة

عصير "جهينة"، تفاح بالزبادي، تلقي بجرعة مـن السـائل اللازج الحلو على بطني فيمضي بطيئًا، ثم تنحنـي بشـفتيها تلعقة في تلاذذ قبل أن يصل إلى تجويف السرة!

تمر بأطراف أناملها على كثافة شعر حـاجبي. تقبـل برقة الشعر الخفيف بينهما ثم تعود لتمر بأناملها على شـفتي وكأنها تعيد تحديد خطوطها. تطبق بشفتيها عليهما في التهام متأن معتمدة أسلوب "قضمة.. قضمة".

مستخدما نفس الأسلوب أحك إبهام قدمي في موضـع حرارتها الأبدية. لم أعد أحتمل المزيد من الحرائـق تنـدلع تباعا في عروقي وأنا أراها مغمضة العينين تتأوه وتكف عن التقبيل.

- لا.. هذا خطر!

قالت فجأة بنبرة مذعورة وأنا أستعد لكي أدسه عميقًا.

ولم يبد على وجهي أنني فهمت شيئًا، فيمـا تراجعـت هي بجسدها.

- يجب أن تستخدم "كوندوم" أولا!

وكنت متكئًا على مفصل الـركبتين فجلسـت محبطًـا إحباطًا لم يتسلل لحسن الحظ إلى السيف المشهر فـي وجـه

أنوثتها. أخيرا تذكرت معني كوندوم: أنها تريدني أن أرتدي الواقي الذكري. هنا شعرت للمرة الأولى بضـراوة الفـرق بينها كامرأة أوربية وبيني كرجل ينتمي إلى العالم الثالث.

هي ابنة الاحتياطات والهواجس الصارمة فـي أشـد لحظات الغرام اشتعالا وأنا ابن التلقائية العاطفية.

ولمجرد كونها غربية يجـب أن يعاملهـا الآخـرون باعتبارها لديها "ضمانة صحية" ولمجرد كوني شرقي يجـب أن يحذر الجميع مني طبيا.

- هل تريدنني فعلا أن أرتدي كوندوم؟

سألتُ وأنا أحاول السيطرة على غضبي.

- نعم.

- ولكن لماذا؟ هل تخشـين مـن احتمـال أن تـؤدي الممارسة المباشرة إلى نقل أمـراض لـك؟ حسـنًا، ولكنني أنا أيضا أجازف وأنام مع فتـاة لا أعـرف عنها شيئًا.. وتذكري أن الإيدز- على سبيل المثال – منتشر في إيطاليا انتشارا لا يمكن مقارنته بمصر.

- أوه.. من فضلك!

- اسمعي! أنا لا أنام مع بنات ليل ولا أمارس الجـنس عشوائيا.

قاطعتها بنبرة حاسمة وأنا أنحني على وجهها أمسح علي خديها مطمئنًا.

- لا تقلقي إذن.. فقط أغمضـي عينيـك وحـاولي أن تشعري كم هي عميقة تلك الصـلة الروحيـة التـي جمعتنا.. إنها كلمة السماء!

وأطلقت ماريا صرختها الأولى..

حين خرجتُ من الحمام والفوطة حول رقبتي كانـت تقف أمام مرآة الدولاب ترتدي "اندروير" أسود مخرم.

تصفف شعرها وتستخدم علبة مكياج صغيرة من النوع المألوف أثناء السفر. كنت على وشـك أن أحتضـنها مـن الخلف، ولكني تراجعت عن الفكرة في آخـر لحظـة حـين شاهدت عبر الباب الزجاجي للبلكونة سيدة بدينة في العمارة المقابلة تهوي البطاطين في الشمس وتختلس كلما تيسر نظرة فضولية باتجاه هذه الخواجاية الجميلة التي لا تكـاد تسـتر جسدها وهي في غرفة نوم شاب أصبح الحي كله يعرف أنه عازب.

قالت ماريا:

- أريد أن أخبرك بشيء ما..
- أرجو ألا يكون خبرا سيئًا
- أنه شيء غريب، بالأمس بعد أن انتهينا – ابتسـمتْ في خجل ثم عاودت القول – وبينما كنت تبحث عن الشبشب في العتمة الشديدة كي تذهب للحمام، رأيت فجأة الحائط يضئ بنقطة نور صغيرة لكن قوية جدا،

كانت هذه النقطة تتحرك عبر الدولاب والباب كلمـا تحركت عيناك، كانت في الواقع تتبعك، ولم أصـدق ما أرى، كانت عيناك هـي مصـدر هـذه النقطـة النورانية التي كانت تنعكس على كل شيء يواجهك، في البداية ظننت أنني أتوهم، لكنـك حـين عـدت للغرفة تكرر نفس الشيء ولم تختف هذه النقطـة إلا في اللحظة التي أغمضت فيها جفونك

حل صمت كثيف بيننا..

- ألم تشعر بذلك، أليس لديك تعليق، ألا تصدقني؟

لم أعرف بماذا أرد

- يجب أن نتحرك سريعا.

قالت وهي محبطة.

- متى ستقلع طائرتك؟

- في الثالثة، لا زال هناك أربـع سـاعات، ولكنـي سأذهب للمهندسين أولا لتجهيـز أشـيائي وتوديـع صديقتي قبل أن أستقل تاكسي إلى المطار.

لم يكن الأبيض الحليبي المورد هو لون بشرتها كمـا توقعت ، وإنما درجة لم أر لها مثيلا في حياتي من درجـات

الأصفر، لون لا تحتمل جاذبيته تبدى لي واضحا الآن فـي نور الصباح.

في التاكسي بدا كما لو كنا في نزهة خاصة..

طقس رائع..

الشمس وحركة الهواء مضبوطان على درجة غرامنا..

المقعد الخلفي واسع.

السائق صامت وحضـوره – علـى غيـر العـادة – مريح..

- تهنئتي!

قالت ماريا وهي تتطلع إلي عبر نظارتها السوداء التـي تخفي عينيها تماما.

- أنت تهنئينني.. علام؟
- على نجاحك المذهل، لا أعرف كيف جعلتني أسـمح لنفسي بأن يحدث بالأمس ما حدث، أنا أسـتعيد الآن التفاصيل ولا أكاد أصدق نفسي!

كانت الشمس تفرش الأسفلت الخاوي أمامنا برداء مـن المودة، وروائح أشجار موالح تنبعث مـن مكـان مـا وتحملها إلينا نسمات قوية.

لذنا بالصمت نحن الاثنان..

هي قالت ما لديها وأنا لا أعرف بماذا أرد...

محمد بركة

- مواليد 1972
- حاصل على دبلومة خاصة في الأدب الإنجليزي
- يعمل كاتبا صحفيا بمؤسسة الأهرام.

E-mail_: barakawi@_hotmail.com

صدر له:

- كوميديا الانسجام – مركز الحضارة العربية "القاهرة" 1998
- 3 مخبرين وعاشق – دار ميريت "القاهرة" 2002

قالوا عن المؤلف:

"كاتب ينتقل بنا من حضارة الكلمة إلى حضارة الصورة"

د.عبد المنعم تليمة

تشكل قصصه عالما له فرادته وتشف عن روح الإبداع في الألفية الثالثة"

أدوار الخراط

"يكتب اللقطة السريعة المكثفة التي تضحك وبعد الضحك لا تكف عن التأمل والتساؤل"

صافي ناز كاظم

"يتناول أشباه المقدسات بحس فكاهي وقدر كبير من الحرية"

إبراهيم عبد المجيد

"يكتب وكأنه يرسم وعيون الطفل هي أداته"

أدب ونقد

"يحتفي بالحسي في إطار السخرية الشفيفة عبر بنـاء شـديد التميز"

(الحياة) اللندنية